﴿٢١٦﴾ إذا كان في الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع في داخله، فإنّ القتال حماية له من أعدائه في الخارج، ولذلك فُرض عليكم- أيّها المسلمون- القتال لحماية دينكم والدّفاع عن أنفسكم، وأنّ نفوسكم بحكم جبلّتها تكره القتال كرهًا شديدًا، ولكن ربما كرهتم ما فيه خيركم، وأحببتم ما فيه شرّكم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون فاستجيبوا لما فرضه عليكم.

﴿٢١٧﴾ لقد كره المسلمون القتال في الشّهر الحرام فسألوك يا محمّد عنه، فقل لهم: نعم إنّ القتال في الشّهر الحرام إثمٌ كبير، ولكن أكبر منه ما حدث من أعدائكم من صدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكّة، فقد كان إيذاؤهم للمسلمين لإخراجهم من دينهم أكبر من كلّ قتل، ولذلك أُبيح القتال في الشّهر الحرام لقمع هذه الشّرور، فهو عمل كبير يُتّقى به ما هو أكبر منه. واعلموا- أيّها المسلمون- أنّ سبيل هؤلاء معكم هو سبيل التجنّي والظّلم، وأنّهم لا يقبلون منكم العدل والمنطق، ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يضعف أمام هجماتهم ويرتدّ عن دينه حتّى يموت على الكفر فأولئك بطلت أعمالهم الصّالحة في الدّنيا والآخرة، وأولئك أهل النّار هم فيها خالدون.

﴿٢١٨﴾ وإنّ الذين آمنوا إيمانًا صادقًا دفعهم إلى الهجرة لنصرة الدّين، والجهاد لإعلاء كلمته، فأولئك ينتظرون عظيم ثواب الله لهم، وإن قصّروا في شيء، لأنّ الله غفور يغفر الذّنوب جميعًا، رحيم يرحم عباده بالهداية والثّواب.

﴿٢١٩﴾ ويسألونك يا محمّد عن حكم الخمر والقمار، فقل: إنّ فيهما ضررًا كبيرًا من إفساد الصّحة وذهاب العقل والمال وإثارة البغضاء والعدوان بين النّاس، وفيهما بعض المنافع الصحيّة والربح السّهل، ولكنّ ضررهما أكبر من نفعهما فاجتنبوهما. ويسألونك عمّا ينفقون، فأجبهم أن ينفقوا في ذات الله السّهل اليسير الذي لا يشقّ عليكم إنفاقه، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون فيما يعود عليكم من مصالح الدّنيا والآخرة.

فرضيّة القتال وإباحته في الأشهر الحُرُم

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢١٦): قال ابن عباس: لمّا فرض الله الجهاد على المسلمين شقّ عليهم وكرهوا، فنزلت هذه الآية.

سبب نزول الآية (٢١٧): روي أنّ رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمّته في ثمانية من المهاجرين في جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين، ليترصّد عيرًا لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرميّ وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطّائف، وكان ذلك أوّل يوم من رجب وهم يظنّونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحلّ محمّد الشّهر الحرام وهو الشّهر الذي يأمن فيه الخائف، ويسعى النّاس فيه إلى معايشهم. ولما قدموا على رسول الله ﷺ، قال لهم: والله ما أمرتكم بقتال في الشّهر الحرام، ووقف العير والأسيرين ولم يأخذ منها شيئًا... وظنّوا أن قد هلكوا فنزلت الآية، فأخذ النّبيّ ﷺ العير وعزل منها الخمس، وقسّم الباقي بين أصحاب السّريّة وفدى الأسيرين." (١)

سبب نزول الآية (٢١٨): عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: "بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ: إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وِزْرًا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ الآية"(٢).

المناسبة: ذكرت أحكام القتال بعد أحكام الصّدقة- نفقة التّطوّع- لما بينهما من الصّلة الوثيقة، فالقتال يحتاج لبذل النّفس والنّفيس من المال، والمال قرين الرّوح، والإنفاق جهاد بالمال، فناسب أن يذكر الجهاد الذي هو أسمى من بذل المال، لأنّه يستقيم به الدّين، ويحتاج إلى بذل المال والنّفس.

المعنى العام

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ فرض عليكم أيّها المسلمون الجهاد، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وهو شاقّ عليكم، تكرهه نفوسكم

(١) ذكره المراغيّ في تفسيره، ج٢، ص١٣٤.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، عن جندب، حديث رقم: ٢٠٤٠، باب: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾، ج٢، ٣٨٨.

لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النّفس، وفيه خيرٌ كبير لكم، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي الجهاد نصر دينكم، وإعلاء كلمة إسلامكم، والغنيمة والظّفر بعدوّكم، والأجر الكبير عند ربكم، من مات كان شهيدًا، ومن عاش عاش سعيدًا، وكذلك بقيّة التّكاليف، فإنّ النّفس تكره الإقدام عليها، وهي مناط صلاحها، وسبب فلاحها ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهذا عام في الأمور كلّها، فقد تحبّون الرّاحة وترك الجهاد وفي ذلك ذُلّكم، وظهور العدوّ عليكم، وفوات الأجر من ربّكم، وحرمان درجة الشّهادة عند ربكم. وكذلك جميع المنهيّات فإنّ النّفس تحبّها بالطّبع، وتشره إليها، وهي تفضي بها إلى ذلّها وهوانها، وعبّر الحقّ سبحانه بعسى لأنّ النّفس إذا ارتاضت انعكس الأمر عليها، فيخفّ عليها أمر الطّاعة، ويصعب عليها أمر المخالفة، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ لجهلكم بعواقب أموركم.

اعلم أنّ هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين، أن يكفّوا شرّ الأعداء عن حظيرة الإسلام، فالجهاد واجبٌ على كلّ أحد، غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يعين، وإذا استُغيث أن يغيث، وإذا استُنفر أن ينفر.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

يقول الحقّ ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك يا محمّد عن القتال في الأشهر الحرم، ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قل لهم أنّ القتال في الشّهر الحرام أمر عظيم، ولكن ما وقع من الكفّار من صدّ النّاس عن سبيل الله ومنعهم من الإسلام والطّاعة، ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ وكذلك كفرهم بالله ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وصدّهم المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وإخراج المسلمين من مكّة التي هي بلدهم، ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ أعظم عند الله ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ والفتنة التي هم فيها من الكفر، وافتتان النّاس عن دينهم أكبر جرمًا من القتال الذي وقع في الشّهر الحرام، ذلك أنّ محاربة الأعداء وقتل من يُقتل منكم خير من أن تكون فتنة بينكم كما هو واقع المسلمين اليوم، فنحن في زمن الفتن وسنين خدّاعة تثير الأحقاد والضّغائن.

ثمّ قال الحقّ ﷻ في التّحذير من الكفّار: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ اعلموا أيّها المسلمون أنّ الحرب مفروضة عليكم، لأنّ الكفّار لن يتركوا قتالكم مهما وقّعتم من العقود والعهود تبغون الصّلح والسّلام، لأنّ هدفهم الأساسي هو إخراجكم من الملّة والدّين، وهذا هو المقصود من زمن آدم عليه السلام إلى يوم الدّين. وهو صراع بين الخير والشّر، فمن سيطر على الأرض سيطر على ثقافة الشّعوب ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ لكنّهم لا يطيقون ذلك، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي يرجع، والرّدّة هي الرجوع من الإسلام إلى الكفر. فمن يرتدد منكم عن دينه ويستمرّ عليه حتّى يموت وهو كافر ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾، حبط أي فسد وبطل عمله. فمن آثر دنياه على دينه، خسر الدّنيا والآخرة، ولا حرمة له ولا نصيب له في الفيء والغنيمة، وفي ﴿وَالآخِرَةِ﴾ لا يرى لها ثوابًا، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وهم مخلّدون في جهنم لا يخرجون منها أبدًا.

ولمّا نزلت الآية في إسقاط الحرج، ظنّوا أنّه لا أجر لهم في ذلك الجهاد، فأنزل الحقّ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾. الهجرة هي مفارقة الأهل والوطن في سبيل الله، لنصرة دينه، هجروا حبّ الدّنيا والتّعلّق بها ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حقّ جهاده، فبذلوا المال والجهد لنشر هذا الدّين، وثبتوا على الحقّ ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ الرجاء هو الأمل والطمع في حصول ما فيه نفع، ورحمت الله أي ثوابه، وستُبسط عليهم الرّحمات بسطًا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهم فلا يضيع جهادهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. عظّم تعالى من شأن الهجرة والجهاد، وعبّر بالرجاء إشعارًا بأنّ العمل غير موجب للثّواب، وإنّما هو عبوديّة، والأمر بيد الله إن شاء أثاب وإن شاء عاقب. فهذا سيّد الخلق ﷺ يقول: «لن يدخل الجنّة أحدكم بعمله. فقالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا حتّى يتغمدني الله برحمته»[1].

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآية:

١. قاعدة عظيمة ينبغي أن لا تنساها وتتذكّرها دومًا في حياتك، من عاش معها حظي بسعادة الدّنيا والآخرة: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. فعلى المؤمن العاقل أن يأخذ بالأسباب ويمتثل أمر ربّه ثم يقف بعد ذلك موقف العبد الراضي المسلم بكل ما يقدّره له مولاه الكريم الرحيم وإن جاء خلاف ما تشتهي من نفسه لأنه لا يدري حقيقة الخير أين هو، أهو في المنع أم في العطاء، فربّما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك. ولو أدركت حكمة المنع لعرفت أنه عين العطاء.

٢. من ينشر الفتنة في الدّين ويسعى لتكفير المسلمين أشدّ ممّن يقتلهم. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2].

٣. وجوب الجهاد على أمّة الإسلام ما بقيت فتنة في الأرض وظلم وطغيان.

٤. الفتنة بين المسلمين أكبر ضررًا من القتال مع الكفّار. قال رسول الله ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[3].

٥. إنّ الدّجال ومن معه من الكفّار يحاولون فرض العلمانيّة على المسلمين وكذلك ضرب القيم والمبادئ، كشَرْعَنَة الزّنا والشّذوذ وغير ذلك، وهذا أشدّ من أن تقاتلوا فتُقتلوا أو تُجرحوا أو تخسروا أموالكم ومساكنكم وتجاراتكم.

٦. البيان أنّ الهدف الأساس للدّجال ومن تبعه من الكفّار، هو إخراج المسلمين من دينهم بشتّى الطّرق والوسائل، وهو لن يكفّ عن ذلك.

(١) رواه الشيخان وغيرهما

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ١٦، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٢٨٩٠، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض.

من أسماء الله الحسنى: الغفور الرحيم

واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بعباده المؤمنين.

ما الإيمانُ؟

الإيمانُ: هو التّصديق المُطْلَق بأسماءِ اللهِ الحسنى والتّعلُّقُ بها.

والتّعلُّقُ بأسماءِ اللهِ تعالى: يكون ما بَيْنَ العبدِ وربِّه، والتّخلُّق بأسماءِ اللهِ تعالى: يكون ما بين العبدِ ومخلوقاتِ ربِّه.

الإيمان بالقدر خيره وشره

هو أن تؤمن بأنَّ: كلَّ ما قدَّره الله تعالى عليك، وقضاه لك، هو لخيرك.

هناك شيء اسمه: قضاء وقدر، وهي الأشياء التي تحصل معك وأنت لا خيار لك فيها.

مثلًا: مرض لك أحدٌ، أو مات لك أحدٌ، أو أنت مرضت، أو حصلت حروب، أو زلازل أو خسرت تجارتك... كلُّ هذه الأشياء لا خيار لك فيها، وقد حصلت معك، أو تحصل مع غيرك، وقد كتبها الله تعالى عليك، وكلُّ ذلك لخيرك، سواء أكان نِعمًا أم كان بلاء.

١. **فإن كانت نِعم:** فالمقصود من هذه النِّعم:

أ- أن تشكر الله عليها، لأنَّ الله تعالى يتودَّد إليك بالنِّعم، لكي تحبَّه.

ب- وأن تتعرَّف على أسماء الله الجماليَّة، مثل: الكريم، الرَّحيم، المعطي، الوهَّاب، ...

٢. **وإذا كانت بلاء:** فالمقصود من هذا البلاء هو: عين العطاء.

والإنسان قد يقع معه شيء من الأقدار المؤلمة، أو المصائب الموجعة التي تكرهها نفسه، وقد يجزع ويحزن، ويظنُّ أنَّ تلك الفاجعة مهلكة لآماله وحياته، فإذا بذلك الأمر المقدّر كان في حقيقته منحة له في ثوب محنة، وعطيّة في رداء بليّة، لما كان فيه من مزيد تعرّف على جلال ربّه، ومن صبر يوفّى أجره عليه بمزيد رضا من الله وقرب، ويورثه درجات عالية في الجنّة.

وهذا يشبه: ما يقوم به الأستاذ حين يمتحن الطَّالب فيضعه تحت ضغط الامتحان، ليبذل الجهد اللازم في الدّراسة، وقد يصعّب عليه الأسئلة لكي يتعلَّم أكثر عندما يصحّح أخطاءه، لأنَّه لو جاءه بامتحان سهل فلن يتعرّف على المادّة بعمق، وإذا لم يضغط عليه بالاختبارات فلن يدرس بتمعّن، ولن يتعلَّم. وكذلك ما يقوم به الوالدان في تربية الأولاد، فقد يمنعونهم عن بعض الأطعمة الضَّارة، للحفاظ على صحتهم، وقد يقوم الوالدان بمعاقبة أولادهم إذا كثرت أخطاؤهم، وذلك لمصلحتهم لكي يتعلَّموا. ولله تعالى المثل الأعلى. فكلُّ بلاءٍ تُبتلى به فهو عين العطاء من الله تعالى لك، ولو كُشِفَ عنك الغطاء لرأيت ذلك.

فعندما نُؤمن باسم اللهِ الحكيم ونتعلَّقُ به؛ نرى حكمةَ اللهِ تعالى في كلِّ شيءٍ، ونرضى بما قضاهُ لنا، ونعيشُ معَ معاني قولِه تعالى: ﴿...وَعَسى أَنْ تَكْرَهوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- تذكّر شيئًا تعلّقت به نفسك فصرفه الله عنك، فكان الخير بخلاف ما تريد، أو كرهته فقُدِّر عليك، ثمّ تبيّن أنّ الخير كلّ الخير كان بما كرهت، ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.
- اكتب ثلاثة أمور تصارعها اليوم في حياتك، وهي على خلاف ما تهواه نفسك، وتذكّر هذه القاعدة العظيمة، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.
- كرّر هذا الدعاء يوميًّا: ((يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.
- صلّ ركعتين لله تعالى، وقل في سجودك: **"سبحان ربّي العظيم وبحمده"** مرّتين وفي الثالثة قل: **"سبحان ربّي الأعلى وبحمده"** من قدّر عليّ البلاء الفلانيّ وتذكّره، ثمّ قل: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ رضيت بالله ربًّا. ثمّ انظر كيف تخرج من الصّلاة وأنت منشرح الصّدر وقد ذهب عنك كلّ ما كان يزعجك.

القتال في الأشهر الحرم

الحكم الأوّل: هل يباح القتال في الأشهر الحرم؟

دلّت هذه الآية على حرمة القتال في الشّهر الحرام، وقد اختلف المفسرون في بقاء الحرمة أم نسخت؟

ذهب الجمهور إلى أنّ الآية منسوخة، نسختها آية براءة ﴿فاقتلوا المُشرِكينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[2].

الحكم الثّاني: هل الردّة تحبط العمل وتذهب بحسنات الإنسان؟

دلّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على أنّ الردّة تُحبط العملَ، وتُضيع ثواب الأعمال الصّالحة، وقد اختلف العلماء في المرتدّ، هل يحبط عمله بنفس الردّة، أم بالوفاة على الكفر؟

- ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنّ العمل يحبط بالردّة نفسها.
- وقال الشّافعيّ ﷺ: لا يبطل العمل إلا بالموت على الكفر.
- وقد انبنى على ذلك خلافهم في المسلم إذا حجّ ثمّ ارتدّ ثمّ أسلم. فقال مالك وأبو حنيفة يلزمه إعادة الحجّ، لأنّ ردّته أحبطت حجّه.
- وقال الشّافعيّ: لا حجّ عليه لأنّ حجّه قد سبق، والردّة لا تحبطه إلا إذا مات على كفره.

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

من الكبائر: سوءُ الظّنِ بالله تعالى والتّشاؤم:

المؤمن لا يعرف التّشاؤم، فسوء الظنّ بالله تعالى كبيرة من كبائر الذّنوب، وهو مجلبة لغضب الله وخذلانه، وهو من شيم المنافقين، فيُقصد به أن يظّن العبد بأنّ الله لا ينصر دينه، ولا يُعلي كلمته، وأنّه لا يغفر له، ولا يرحمه، ولا يشفيه ولا يوفّقه، وإذا تصدّق فلن يعوّض عليه...

قال رسول الله ﷺ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ»[١] فهو أكبر الكبائر الاعتقادية بعد الكفر لأنّه يؤدّي إليه، وهو من صفات المنافقين والمشركين.

قال ابنُ القيّم: "أعظَمُ الذُّنوبِ عِندَ اللهِ إساءةُ الظَّنِّ به"[٢].

قال أبو حاتم البستي: "صحبة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار، ومَنْ صادَقَ وصاحَبَ الأشرار لم يَسْلَمْ من الدّخول في جملتهم، فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الرّيب؛ لئلّا يكون مريبًا، فكما أنَّ صحبة الأخيار تورث الخير كذلك صحبة الأشرار تورث الشرّ".[٣]

وثبت عن النّبيّ ﷺ أنّه تحدّث عن حسن الظنّ بالله ﷻ عند الموت، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّه قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بثَلَاثَةِ أيَّامٍ يقولُ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلَّا وَهو يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ تعالى»[٤].

عَنْ أنس بن مالك رضي الله عنه، أنّه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَخْرُجُ رَجُلَانِ مِنَ النَّارِ، فَيُعْرَضَانِ عَلَى اللهِ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِمَا إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمَا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا كَانَ هَذَا رَجَائِي، قَالَ: وَمَا كَانَ رَجَاؤُكَ؟، قَالَ: كَانَ رَجَائِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا، أَنْ لَا تُعِيدَنِي، فَيَرْحَمُهُ اللهُ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ»[٥].

مَن أساءَ الظّنّ أساءَ العمل.

تلا الحسن رضي الله عنه: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ....﴾[٦] فقال: إنّما عمل النّاس على قدرِ ظُنونهم بربّهم؛ فأمّا المؤمنُ فأحسن بالله الظّنّ، فأحسن العمل، وأمّا الكافر والمنافِق، فأساءا الظّنّ فأساءا العمل[٧].

وجاء في الحديث القدسيّ: «أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي»[٨].

وعن رسول الله ﷺ، قال: أنّ الله تعالى، قال: «أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي، إِنْ ظَنَّ بي خَيْراً فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرّاً فَلَهُ»[٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الفَأْلَ الحَسَنَ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ"[١٠] والطِّيَرَةَ: هي التّشاؤم بالشّيء.

وقال ﷺ: «وَأُحِبُّ الفَأْلَ الصّالِحَ»[١١].

وقال ﷺ: «يُعْجِبُنِي الفَأْلُ الصّالِحُ: الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ»[١٢].

وعنه ﷺ، قال: «فأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ»[١٣].

---

(١) رواه السيوطيّ في الجامع الصغير، عن ابن عمر، حديث رقم: ١٣٧٦، كتاب وباب: حرف الألف.
(٢) ذكره ابن القيّم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، باب: ومن عقوبتها أنّها تزيل النعم الحاضرة، ج١، ص٩٦.
(٣) ذكره أبو حاتم البستيّ في من لطائف ولآلئ روضة العقلاء، باب: الأخلّاء يومئذ بعضهم...، ج١، ص ٢٣٤.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن جابر، حديث رقم: ٢٨٧٧، كتاب: الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت.
(٥) رواه ابن حبّان في صحيحه، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ٦٣٢، كتاب: الرقائق، باب: ذكر البيان بأنّ حسن الظنّ بالمعبود ﷻ، الحديث إسناده صحيح.
(٦) سورة فصّلت، الآية: ٢٣.
(٧) ذكره الطّبريّ في تفسيره، عن الحسن، باب: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وذلِكُم ظنّكُم﴾، ج٢٠، ص٤١٣.
(٨) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٧٥٠٥، كتاب: التّوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ﴾.
(٩) رواه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٩٠٧٦، مسند: المكثرين من الصّحابة، مسند: أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث صحيح.
(١٠) رواه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم:٨٣٩٣، مسند: المكثرين من الصّحابة، مسند: أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث صحيح وإسناده حسن.
(١١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٢٢٣، كتاب: السّلام، باب: الطّيرة والفأل وما يكون فيه من الشّؤم.
(١٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ٥٧٥٦، كتاب: الطّبّ، باب: الفأل.
(١٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عمرو بن عوف الأنصاريّ، حديث رقم: ٣١٥٨، كتاب: الجزية، باب: الجزية والموادعة مع أهل الحرب.

من الأخلاق المحمّدية: الحكمة والثبات عليها:

هذا الخُلُقُ مُستَمَدٌّ مِن اسمَي الله تعالى **"الحكيم والصّبور"**.

والتَّخَلُّقُ باسم الله "**الحكيم**" هو بأن تكونَ حكيمًا في أقوالِكَ وأفعالكَ وجميعِ أمورِك، فإنّ الحكيمَ مَن ينظرُ في عواقبِ الأمورِ. والتَّخَلُّقُ باسم الله "**الصَّبور**" هو بأن تَثْبُتَ على تَطبيقِ الحكمَةِ وإن خالَفَكَ أكثَرُ النّاسِ، وَتصبِرَ على ذلك حتّى يُظهِرَ اللهُ النّتائجَ ويَروا العواقِبَ، وهذا يحتاجُ إلى صبرٍ كبيرٍ لأنّك ستُواجَهُ بتيّاراتٍ مِنَ الضُّغوطات والانتقاداتِ، ذلك أنَّ أغلبَ النّاسِ لا ينظرونَ في عواقِبِ الأُمور.

- كيف نُحسنُ التّصرّفَ ونختارُ الكلامَ المُناسِبَ لِكلّ ظَرفٍ؟ كيف نتجنّبُ العَقَباتِ حتّى نَصِلَ لِما نُريدُ وَنَنجحُ في أُمورِ حياتِنا؟ إنّها الحكمَةُ في القولِ والفعلِ، تَجعَلُنا نَسيرُ على هدًى وبَصيرَةٍ، ومِن أركانِها العلمُ أي أن تكون مُلمًّا بالموضوع، والحلمُ أي أن لا تنفعلِ بسرعة، والأناة أي أن تتأنّى في أخذ القرارات وردودِ الفعل. قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...**﴾[1].
- **الحكمة** هي وضعُ الشّيء في موضعِه، وهي قولُ أو فعلُ ما ينبغي في الوقتِ الّذي يَنبغي على النّحوِ الّذي ينبغي. مَن أوتيَ الحكمةَ استطاعَ وزنَ الأمورِ وتجنُّبَ الزّلات ورؤيةَ أبعادِ المُعطياتِ وأبعاد الأمور. والحِكمةُ تَحفظُنا من فعل ما يعود علينا بالضرر وارتكاب السّوءِ أو التلفُّظِ بِهِ، ومِنَ التَّسَرُّعِ وَالتّجنّي على الغَيرِ، ومِن عملٍ ما يَضطرّنا للاعتذار وطلب العَفْوِ. ومن الحكمة استشارة الحكماء واستخارة الحكيم العليم ﷻ، ما ندم من استشار، وما خاب من استخار.
- **الحكمةُ** تنبعُ من نورِ العقلِ الّذي أمدّكَ الله به، فهي تأتي من العلمِ وحُسنِ التّصرّفِ واتّخاذِ القرارِ المناسِبِ في الوقتِ المناسِبِ. كما تنبعُ من النّورِ الأعلى الأتمّ والأقوى: نورِ القرآنِ والسّنّة النّبويّة والأخلاقِ المحمّديّة، الّتي باتّباعها تكون على هدًى ونور من ربّك. قال تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[2]. وكان رسولُ الله ﷺ يسألُ ربَّهُ الثّباتَ على الحقّ: «**يا مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[3]. وذلك لأنّ أكثر النّاس يصدوك عن الحكمة فلا تطعهم ولا تتبعهم واثبت على الحق وعلى قواعد الحكمة. قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾[4].
- **الثّباتُ** هو البقاءُ على الشّيءِ والاستمرارُ فيه. فالثّباتُ على العملِ والموقفِ والمبدأ والطّريق والمرابطة يتمُّ عبر المداومة على الطّاعات والمعتقدات والخدمات والأعمال الصّالحة وكلّ شيء يقرّب إلى الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «**لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي قائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خالَفَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ ﷻ وَهُمْ ظاهِرونَ عَلى النّاسِ**»[5]. وقد قال الله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ**﴾[6] وقال الله تعالى: ﴿**... رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**﴾[7].
- **من قواعدِ اكتسابِ الحِكمةِ:** تجنُّبُ المفاسِدِ لأنّ المفسدَةَ ستطغى ولو كان في الأمر مصلحَةٌ. لذلك القاعِدَةُ هِيَ: "ردء المفسدة مقدّم على جلب المصلحة" وَمِنَ الحِكمَةِ تجنُّبُ أصدقاءِ السّوء، وحسنُ اختيارِ الكتابِ، والبرامجِ الّتي تتابعها، والرّفق في الأمر كلّه، والإحسانُ والمعروفُ للآخرين. وإن لم يعلموا ذلكَ أنّ القاعدة القرآنية تقول: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ**﴾[8]

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٣) رواه أحمد في مسند، عن أنس بن مالك ﷺ، رقم الحديث: ١٢١٠٧، مسند المكثرين من الصّحابة، باب: مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه-.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٥) رواه مسلم في صحيحه، عن معاوية بن أبي سفيان، رقم الحديث: ٥٠٦٤، كتاب: الإمارة، باب: قوله لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٥. (٧) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣. (٨) سورة الرّحمن، الآية: ٦٠.

- **بالحكمةِ** يصبحُ الشّخصُ دائمَ التّفاؤلِ لأنّه يعلمُ أنّه ما بعد الضّيق إلّا الفرج، ومَعَ كلّ عُسرٍ يُسرين، وأنّ دوامَ الحالِ في المحالِ، وعواقب الأمورِ إلى الأفضل و﴿... وَعَسى أَنْ تَكْرَهوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[١]. وبذلك يُصبحُ قلبُ الإنسانِ مرتاحًا وسعيدًا. كما يأتيه الهدوءُ والحلمُ لمواجهةِ المواقفِ فيكون غيرَ عجولٍ وغير انفعاليّ. ويصيرُ ينظر للكلّيّات دون الجزئيّات، ولحقائق الأمور دون ظواهرها.

﴿ربّنا آتنا حكمًا وألحقنا بالصّالحين﴾[٢].

ما الفرق بين رحمت الله ورحمة الله تعالى؟

الرّحمة الّتي تأتي فيها التّاء مَفْتوحَة أو مَبْسوطَة "**رحمت**"، مفادها أنّها رَحمَة بسطت بعد قَبضها وأَتَت بَعد شِدَّة، ودائِمًا تَكون مُضافَة مُباشَرة لِلَفْظ الجَلالَة ﷻ. وتدلّ التّاء المَبْسوطة أيضًا على اتّساع قدرة الله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣]، أمّا الرَّحْمَة الّتي تأتي فيها التّاء مربوطة فهي رحمة مرجوّة لم تفتح للسّائل بعد. فالعابد القانت السّاجد آناء اللّيل، يرجو رحمة ربّه في الآخرة ألا وهي الجَنَّة، الّتي هي مقفلة دونه في الحياة الدُّنيا، وستفتح له يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

الحكمة: "لا يكن أمد تأخّر العطاء مع الإلحاح في الدّعاء موجبًا ليأسك، فهو ضَمِن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد".[٤]

الحكمة: "لا تترك الذّكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأنّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ في وُجودِ ذِكْرِهِ. فَعَسى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَفْلَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ يَقْظَةٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ حُضورٍ إلى ذِكْرٍ مَعَ وُجودِ غَيْبَةٍ عَمّا سِوَى المَذْكورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾"[٥].

الحكمة: "خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك"[٦].

التوجيهات:

- الجهاد في سبيل الله لنشر الدّين والخير والأخلاق شريعة ماضية إلى يوم القيامة، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
- المسلم الصّادق يسلّم أمره لله؛ ولو خالف هواه، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.
- السّبب الأوّل للحرب على بلاد المسلمين هو الدّين؛ مهما ألبسوا الحرب بلباس آخر، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٤) ذكره ابن عجيبة في الحكم العطائيّة، ج١، ص٣٠.
(٥) ذكره ابن عجيبة في الحكم العطائيّة، ج١، ص٥٥.
(٦) ذكره ابن عجيبة في الحكم العطائيّة، ج١، ص٢٠١.

صلح الحديبية

من الأمثلة الواضحة على قاعدة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، صلح الحديبية وما فيه من بنود ظاهرها شرّ وحقيقتها خير:

ففي شهر ذي القعدة، آخر سنة ست للهجرة، " خَرَجَ النّبيّ ﷺ عامَ الحُدَيْبِيَةِ فِي بِضْعِ عَشْرَةَ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى ذَا الحُلَيْفَةِ، قَلَّدَ الهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، وَسَارَ النّبيّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الأَشْطَاطِ أَتَاهُ عَيْنُهُ، قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، وَمَانِعُوكَ، فَقَالَ ﷺ: **«أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ البَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ تعالى قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ»**، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا البَيْتِ، لا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ، وَلا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ. قَالَ: **«امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ»** [1]".

ثمّ قال: **من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟** فقال له رجل من بني أسلم: أنا يا رسول الله. فسلك بهم طريقًا وعرًا بين الشّعاب.

" وَسَارَ النّبيّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، فَقَالَ النّبيّ ﷺ: **«مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»**، ثمّ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»**... فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيُّ... فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ»**، فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا... فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ:... فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيهِ، قَالُوا: ائْتِهِ، فَأَتَاهُ... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقَالُوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، قَالَ النّبيّ ﷺ: **«هَذَا مِكْرَزٌ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ»**، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النّبيّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو... قَالَ النّبيّ ﷺ: **«لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»**... فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النّبيّ ﷺ الكَاتِبَ، فَقَالَ النّبيّ ﷺ: **«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»**، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النّبيّ ﷺ: **«اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»** ثمّ قَالَ: **«هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ»**، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النّبيّ ﷺ: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»**

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، حديث رقم: ٤١٧٨، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية.

- قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، قَالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ»، قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَجِزْهُ لِي»، قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ، قَالَ: «بَلَى فَافْعَلْ»، قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ، قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى المُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَ لَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ»، قَالَ: قُلْتُ: لا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ...

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا،...

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ حَتَّى أَتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا» فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللهُ مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ» فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى

سِيفَ البَحْرِ قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ، لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1] حَتَّى بَلَغَ ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[2] وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البَيْتِ."[3]

فالمفاوضات التي جرت بين النّبيّ ﷺ وبين مندوبي قريش أسفرت عن اتّفاق سُمّي في التّاريخ والسّيرة النّبويّة بصلح الحديبية، وهو يقضي بهدنة بين المسلمين وقريش، وترك الحرب عشر سنين، وعدم دخول المسلمين البيت الحرام من عامهم ذاك معتمرين، ولكن يحلّون إحرامهم، ثمّ يأتون العام المقبل لأداء العمرة، كما اشترط المشركون أن يردّ النّبيّ من يأتي إليه من قريش مسلمًا، وألا تردّ قريش من يأتيها مرتدًّا، وأنّ من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد النّبيّ ﷺ من غير قريش دخل فيه.

وقد ذكر في الحديث، أنّ النّبيّ ﷺ قد وافق على شروط المعاهدة، لأنّه كان مدركًا وموقنًا أنّ هذا الصّلح سيكون فتحًا وخيرًا وبركة على المسلمين بعد ذلك. غير أنّ عمر وبعض الصحابة ﷺ كرهوا هذا الصّلح، ورأوا في شروطه ظلمًا وإجحافًا بالمسلمين، لكنّهم ندموا على ذلك، وظلّت تلك الحادثة درسًا لهم فيما استقبلوا من حياتهم، فكان سهل بن حنيف ﷺ يقول: "اِتّهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل (يوم صلح الحديبية) ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله ﷺ لرددته"، وبقي عمر ﷺ زمنًا طويلًا متخوّفًا أن يُنْزِلَ الله ﷻ به عقابًا، لقوله للنّبيّ ﷺ يوم الحديبية: (فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا)، وكان يقول: "فما زِلتُ أصوم وأتصدّق وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلّمت به يومئذ".

الفوائد والعبر من صلح الحديبية

فمن فوائد صلح الحديبية الهامّة أنّ الصّحابة- رضوان الله عليهم- تعلّموا أنّ في طاعة أمر النّبيّ ﷺ والرّضى والتّسليم لحكمه الخير والصّلاح المتضمّن لسعادة الدّنيا والآخرة، وإن خالف أمره النّفس والعقل، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[4]

من الفوائد المهمّة من صلح الحديبية التي ذكرها ابن القيّم ﷺ: "أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ وَالْبُغَاةِ وَالظَّلَمَةِ إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعَظِّمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَى، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأُعْطُوهُ وَأُعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ فَيُعَاوَنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمُ حُرُمَاتِ اللهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنِ الْتَمَسَ الْمُعَاوَنَةَ عَلَى مَحْبُوبٍ للهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضٌ للهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَى النُّفُوسِ" [5]

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٤. (٢) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، حديث رقم: ٢٧٣١، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٥) ذكره ابن القيّم في زاد المعاد، باب: بعض ما في قصّة الحديبية من الفوائد، ج٣، ص٢٦٩.

وفي قوله ﷺ: «لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»، قال ابن بطّال: "يريد بذلك موافقة الله في تعظيم الحرمات؛ لأنّه فهم عن الله إبلاغ الأعذار إلى أهل مكّة، فأبقى عليهم لما كان سبق لهم في علمه أنّهم سيدخلون في دين الله أفواجًا".(١)

واستنبط ابن حجر فائدة جليلة في شرحه لقول النّبيّ ﷺ: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» وهو في طريقه لمكّة قبيل عقد صلح الحديبية، "أَيْ حَبَسَهَا اللهُ تعالى عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ كَمَا حَبَسَ الْفِيلَ عَنْ دُخُولِهَا... وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِهَا، أَنَّ الصَّحَابَةَ لَوْ دَخَلُوا مَكَّةَ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ وَصَدَّتهُمْ قُرَيْشٌ عَنْ ذَلِكَ، لَوَقَعَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ قَدْ يُفْضِي إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَنَهْبِ الْأَمْوَالِ كَمَا لَوْ قُدِّرَ دُخُولُ الْفِيلِ وَأَصْحَابِهِ مَكَّةَ، لَكِنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى فِي الْمَوْضِعَيْنِ أَنَّهُ سَيَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ خَلْقٌ مِنْهُمْ وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ نَاسٌ يُسْلِمُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَكَانَ بِمَكَّةَ فِي الْحُدَيْبِيَةِ جَمْعٌ كَثِيرٌ مُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ فَلَوْ طَرَقَ الصَّحَابَةُ مَكَّةَ لَمَا أَمِنَ أَنْ يُصَابَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِغَيْرِ عَمْدٍ.. قَالَ الْخَطَّابِيُّ مَعْنَى تَعْظِيمِ حُرُمَاتِ اللهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَرْكُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ وَالْجُنُوحُ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْكَفُّ عَنْ إِرَاقَةِ الدِّمَاءِ".(٢)

لقد كان صلح الحديبية ـ مع ما في ظاهره من إجحاف بالمسلمين مفتاحًا لفتح مكّة، وغيرها من الفتوحات الإسلاميّة بعد ذلك، فقد اختلط المسلمون بالكفّار بعد عقد الصّلح والمعاهدة وهم في أمان، ودعوهم إلى الله تعالى، ودخل في سنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك، بل وأكثر، فقد خرج النّبيّ ﷺ إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثمّ خرج عام فتح مكّة في عشرة آلاف.

وكان أبو بكر الصّديق رضي الله عنه يقول: "ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكنّ النّاس يومئذ قَصُرَ رأيهم عمّا كان بين محمّد ﷺ وربّه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتّى تبلغ الأمور ما أراد. لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجّة الوداع قائمًا عند النّحر يقرّب إلى رسول الله بُدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده! ودعا الحلّاق فحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه! وأذكر إباءه أن يقرّ يوم الحديبيّة بأن يكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم! وإباءه أن يكتب أن محمّدًا ﷺ رسول الله! فحمدت الله الّذي هداه للإسلام. فصلوات الله وبركاته على نبيّ الرّحمة الّذي هدانا به، وأنقذنا به من الهلكة".(٣)

وعَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ،..."(٤)

حرص اليهود على عدم انتشار الإسلام بشتّى الطّرق والوسائل

عن ابْنِ عبّاس رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَسَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَأَبُو رَافِعٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَأَبُو عَامِرٍ، وَوَحْوَحُ بْنُ عَامِرٍ، وَهَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ؛ فَأَمَّا وَحْوَحُ، وَأَبُو عَامِرٍ، وَهَوْذَةُ فَمِنْ بَنِي وَائِلٍ، وَكَانَ سَائِرُهُمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ، قَالُوا: هَؤُلَاءِ أَحْبَارُ يَهُودَ وَأَهْلُ الْعِلْمِ

(١) ذكره ابن بطّال في تفسيره، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ج٨، ص١٢٧.
(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباريّ، عن الخطّابيّ، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ج٥، ص٣٣٦.
(٣) ذكره المقريزيّ في إمتاع الأسماع، باب: فتح الحديبية وخبر أبي بكر، ج١، ص٢٩٤.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن البراء، حديث رقم: ٤١٥٠، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية.

بِالْكُتُبِ الْأُوَلِ، فَاسْأَلُوهُمْ أَدِينُكُمْ خَيْرٌ، أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَسَأَلُوهُمْ، فَقَالُوا: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾"[2][3] يعني أنّ اليهود تقول إنّ الذين يعبدون الأصنام، أهدى من الذين يعبدون الله ويهتدون بهديه.

في السّلوك

الإشارة: الجهاد على قسمين: جهاد أصغر وهو جهاد السّيف، وجهاد أكبر وهو جهاد النّفس، فيجاهدها أوّلًا في القيام بجميع المأمورات، وترك جميع المنهيّات، ثمّ يجاهدها ثانيًا في ترك العوائد والشّهوات، ومجانبة الرّخص والتّأويلات، ثمّ يجاهدها ثالثًا في ترك التّدبير والاختيار، والسّكون تحت مجاري الأقدار، حتّى لا تختار إلا ما اختار الحقّ تعالى لها، ولا تشتهي إلا ما يقضي الله عليها، فإنّ النّفس جاهلة بالعواقب، فعسى أن تكره شيئًا وهو خير لها، وعسى أن تحبّ شيئًا وهو شرّ لها.

فعسى أن تأتيها المسارّ من حيث تعتقد المضارّ، وعسى أن تأتيها المضارّ من حيث ترجو المسارّ، وعسى أن تنتفع على أيدي الأعداء، وعسى أن تضرّ على أيدي الأحبّاء، وعسى أن تكره الموت وهو خير لها، وعسى أن تحبّ الحياة وهي شرّ لها، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها، الذي هو عالم بمصالحها، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[4]
- اللَّهُمّ أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.
- اللَّهُمّ الطُف بنا في قضاءك وقدرك لطفًا يليق بجودك وكرمك.
- اللَّهُمّ عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك وبجبرك لا بحسابك.

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٣) ذكره الطبريّ في تفسيره، عن ابن عبّاس، باب: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ويقولونَ للذينَ﴾، ج٧، ص١٤٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨.